مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

ترجمات نماء

العالم الإسلامي في أزمة

مراد هوفمان

نقله إلى العربية: عبد الرحمن أبو ذكري

www.nama-center.com

الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز

ترجمات نماء:

العالم الإسلامي في أزمة[i]

مراد هوفمان[ii]

نقله إلى العربية: عبد الرحمن أبو ذكري[iii]

أولًا: الأزمات في العالم الإسلامي:

قد يبدو عنوان هذه الورقة إنذاريًا. فكأنه يُلمِحُ إلى أن المسلمين يواجهون الآن وضعًا فريدًا، لا نظير لخطورته. إلا أن مثل هذا التقدير خادِعٌ على عِدَّة مستويات. إذ لم يمُر زمانٌ على عالم المسلمين، إلا وكان يُواجِهُ فيه خطرًا ما.

يَصِحُّ هذا على بدايات الإسلام المبكِّرة، زمان بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. فمنذ اللحظة التي بدأ فيها تنزُّلُ الوحي عام 610م؛ بدأت مُعاناة المسلمين الأوائل. إذ فَقَدَ النبي صلى الله عليه وسلم لفوره القبول العظيم الذي تمتَّع به من قبل، وهو ما تجلَّى في الدور الذي شُرِّفَ به إبّان إعادة بناء الكعبة؛ حين ارتُضي لوضع الحجر الأسود في مكانه. هذا الرفض لدوره الجديد، كنبيٍ للإسلام؛ تم التعبير عنه أول الأمر بالتشكُّك فيما جاء به. ثم اتُّهِمَ علانيةً بالكهانة، وبأنه شاعر، بل اتُّهِم كذلك بأن به مسًا من الجن، وأنه ساحر.

ولفترةٍ من الزمن، لم يجرؤ خصوم النبي صلى الله عليه وسلم على إيذاءه مباشرة. بل آذوه بدلًا من ذلك بطريقٍ غيرِ مباشرٍ، إذ نالوا من أصحابه، ابتداءً بعبد الله بن مسعود. وهكذا، حُبِس مسلمو مكة الأوائل، وضُربوا، وحُرموا الطعام والشراب، وعُرِّضوا بوحشيّة لشمس مكة الحارقة مثلما حدث لبلال بن رباح. وقد كان بلال ليهلِك، تحت وطأة التعذيب؛ لولا اشتراه أبو بكرٍ الصديق وأعتقه.

وقد كانت المقاطعة الاقتصادية، التي تهدَّد بها أبا جهلٍ أتباع محمد صلى الله عليه وسلم؛ على ذات الدرجة من الخطورة، حتى أنها كادت لتؤدي بهم إلى سؤال الناس. يُعبِّرُ عن مدى خطورة ذلك الوضع تفضيل ثلاثة وثمانين مُسلمًا الهجرة بأهلهم إلى الحبشة، أو إلى المجهول؛ عام 615م، وهو ما صار يُعرَف بالهجرة الأولى. لكنهم، حتى في ذلك المهجر البعيد؛ لم يكونوا بمنأى عن محاولات مُشركي مكة (الفاشلة)، لاستعادة أبنائهم "الصابئين".

ثم قاطع الملأ من أهل مكة المسلمين اجتماعيًا واقتصاديًا مُقاطعةً كاملة، وصاروا في عُرفها خارجين عليها وآبقين من عِقالها. وخلال تلك الحقبة، مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بالتجربة التي عُرِفَت بالإسراء والمعراج. وحين أخبر قُريشًا برؤياه الصادقة، التي أراه ربّه إياها خلال تلك الرحلة الليلية؛ اعتبرها أكثر قومه عبثًا، وتشككوا في سلامة عقله. كانت تلك المرحلة شديد الوطأة على النبي صلى الله عليه وسلم، وازدادت حساسيةً وحرجًا بوفاة زوجه المحبوبة خديجة، وعمّه وحاميه أبو طالب؛ في عام 619م.

ثم صارت الهجرة إلى المدينة أمرًا لا مفر منه، حتى للنبي نفسه. فغادر المسلمون مكة موجة بعد أخرى، حتى لم يبق مع رسول الله سوى أبو بكر وعلي بن أبي طالب. وتآمر أبو جهل مع القبائل على قتله صلى الله عليه وسلم؛ الأمر الذي عجَّل بهجرتِهِ المحفوفة بالمخاطِر إلى المدينة عام 622م.

وهناك، في المدينة المنوَّرة؛ صار بوسع المسلمين إنشاء دولة ثُنائية الدين تحت قيادة محمد صلى الله عليه وسلم. لكن البون كان ما يزال بعيدًا بينهم وبين انتهاء جهادهم، بما أن أهل مكة قد أعلنوها حربًا مفتوحة، وحاصروا المدينة عِدَّة مراتٍ بتفوّقٍ عددي هائل. إضافة إلى ذلك، كان على المسلمين التعاطي مع خيانة القبائل اليهودية التي تسكُنُ المدينة؛ إذ طعنتهم في ظهورهم وتآمرت عليهم. وخلال معركة أُحُد؛ جُرِحَ النبي جراحة بليغة. ولم يمر وقت طويل، حتى نجا بالكاد من محاولة قتلٍ بالسُم.

وحتى بعد العودة السلمية إلى مكة، بعشرة آلاف مسلم؛ ودخول أبو سفيان في الإسلام، كان البون ما يزال بعيدًا بينه صلى الله عليه وسلم وبين انتهاء مشكلات دعوته. وهو ما ثبت في اضطراره إلى غزوات حُنين وتبوك، بل والإيغال شمالًا حتى خيبر (628م) ومؤتة (629م).

وبعبارةٍ أخرى، كانت حياة محمد، كنبي للإسلام؛ جهادًا مُستمرًا ضد قوى معادية، منذ ابتداء بعثه وحتى حجة الوداع؛ المرة الوحيدة التي حجَّ فيها، وسبقت انتقاله للرفيق الأعلى (عام 632م) بوقتٍ جد قصير.

*****

الشيء نفسه يُمكن أن يُقال عن الحقبة التالية من تاريخ الإسلام: عهد ما يُسمى بالخلفاء الراشدين. تلك الأعوام، من 632 إلى 661م؛ التي يُقدِّسُها مسلمو اليوم كما لو كانت التجسُّد المثالي للإسلام على الأرض.[1] في حين أن الحقيقة تختلِف كثيرًا عن

١- برغم نُضج رؤية هوفمان النسبي للتاريخ، ومحاولته جاهدًا نفي الطوبيا وتقويض القداسة التي يُسبغها المسلمون المعاصرون ظُلمًا على التاريخ؛ فإنه عاجز كذلك عن التعامُل مع تاريخ الخُلفاء بوصفه لحظة نماذجية. إذ هو أسير للثنائية الصلبة للقداسة والدنس، ومن ثم عاجز عن أنسنة اللحظة النماذجية، أو التعامل

تلك المعالجة المثالية. فرغم كل تلك الهالة؛ قُتِل ثلاثة من خلفاء الإسلام الأربعة الأوَل، عُمر وعثمان وعلي؛ ووحده أبو بكرٍ مات حتف أنفه. كذا؛ كانت فترة حكمهم حافلة بالحروب في كل الاتجاهات: ضد المرتدين ومُدعي النبوة أمثال مُسيلمة، وضد الروم البيزنطيين، وضد الفرس الساسانيين، وضد الخوارِج، بل بين المسلمين أنفُسهَم وفي داخِل صفّهم، وأنا أعني بذلك أول صراعٍ سُنّي شيعي (وقعة الجمل في 656م، ووقعة صِفّين عام 657م).

صحيح أن تلك الحقبة لم تكُن سوداء برُمَّتها، بما أنها شَهِدَت مثلًا جمع القرآن على يد زيد بن ثابِت؛ إلا أن جمهرة كبيرة من خيار أهلها، الذين عدَّدهم "محمد بيغ"[٢] في لائحته التي حوت أسماء ما يربو على المائة صحابي؛ قد قُتِلوا في الفتوح. وبعبارةٍ أخرى؛ كان اختيار الإسلام دينًا، في القرن السابع الميلادي؛ خيارًا تكتنفه مخاطر شديدة.

*****

كذا لم تكن الإمبراطوريّتان الأموية والعباسية واحتانِ للسلام والطمأنينة. لقد اقتضى الوقوف بوجه الانحراف والدفاع عن الإسلام الحقيقي في دمشق بسالةً وجرأةً، إذ تحوَّل أمراء المسلمين سريعًا إلى ملوكٍ. وقد كان مقتل الحسين بن علي، سبط النبي صلى الله عليه وسلم؛ في كربلاء من أرض العراق، عام 680م؛ على يد قائدٍ أمويٍ كاشفًا بفجاجة عن الهاوية التي تردَّى فيها الإسلام. وفي عام 692م؛ استحالَت مكة نفسها إلى ساحة حربٍ بين الحجاج بن يوسف الثقفي وعبد الله بن الزبير.

صحيح أن الأمويين سكّوا أول نقودٍ إسلاميّةٍ، وأمَّنوا الثغور، وشيَّدوا قُبَّة الصخرة المبهرة في القدس (691م)، وعمَّروا المسجد الأقصى(705م). وصحيح أنهم كذلك قد حملوا الإسلام إلى قُبرُص والهند وما وراء النهر، ثم، بفضل عقبة بن نافع؛ طوال الطريق إلى المغرب، على ضفاف الأطلنطي؛ ومن هناك إلى الأندلس عام 711م. إلا أنه فيما عدا المعتزلة، كانت الحياة الدينية تحت

معها باعتبارها مُنتج إنساني بذات القدر. منتج إنساني يطوي القداسة والدنس معًا. إذ اللحظة النماذجية في روعه وفي لا وعيه هي لحظة طوباوية مثالية، برغم أنه يرفض ذلك التصور على المستوى الواعي! ومن ثم، فهو يرفُض تقديس التاريخ، لكنه يقع في فخ تدنيسه، ولا يستطيع أنسنة تاريخ الخلفاء بعد قبض النبي صلى الله عليه وسلم، ولا التعامُل معه بوصفه "اللحظة النماذجية" الإسلامية، بسبب ما فيه من المنغِّصات والمكابدات. والإشكالية عند هوفمان وأمثاله، في رأيي؛ سببها هيمنة البراني على الجواني بدرجة كبيرة (بسبب خلفيته القانونية!)، واعتبار الأول هو المرجع والحكم، وهو عين الخلل عند الإسلاميين المعاصرين. فهم جميعًا يتعاملون مع التاريخ بمآلاته المادية البرانية فحسب، ويرفضون النظر للحظة النماذجية لا بوصفها التحقُّق الكامل للإسلام في المجال البراني؛ بل بوصفها التحقُّق الأمثل للإسلام في الفضاءات الجوانية لمجموع الصحابة، رضوان الله عليهم. وصحيح أن عهد الخلفاء قد شهد خلافات سياسية ضارية، ومنافسات بدت فيها أطماع شخصية ونضحت ببعض المواريث الجاهلية، وهو ما أدى إلى مقتَل عمر وعثمان وعلي، إلا أن هذا هو نفسه مكمن قوة اللحظة النماذجية التي مثلتها حقبة الخلافة الراشدة: تقوى الخليفة/الإمام ومراقبته الله وتمام خضوعه له، بغض النظر عن صحة تأوله؛ وليس هيمنته الطاغوتية على المجال العام، والتي تحفظ "هيبة الدولة" و"سُلطة القانون"، كما يريد الحداثيون والإسلاميون المعاصرون. إن مكمن قوتها كلحظة نماذجية هو نفسه ما يعتبره هؤلاء موطن ضعفٍ في بنيانها وتكوينها وممارساتها. (المعرِّب)

2- Muhammad Beg: *Brief Lives of the Companions of Prophet Muhammad*, Cambridge, East Anglia, 2003.

الحكم الأموي فقيرة. وقد كان الخليفة عمر بن عبد العزيز والصوفيّة الأوائل، أمثال الحسن البصري ورابعة العدوية؛ هم عين الاستثناءات التي تُثبِتُ القاعِدة.

أهذه هي الحقبة التي قد يودُّ المسلمين العودة إليها؟

*****

تلا ذلك الأسرة العباسيّة، والتي حكمت الإمبراطورية الإسلامية بنفس المنطق الشعوبي المتمركز حول العرق، الذي اشتهرت به سالفتها الأموية؛ مُحتفظةً بذات النعرة العربية، وبنفس الصِبغَة السياسية العلمانية للأمويين. وبالانتقال إلى بغداد، واصل المسلمون، بوصفهم ورثة للفرس الساسانيين؛ ولوغهم في نمطٍ من الترف الملكي الشرقي، والذي ساد ببذخه طوال حُكم العباسيين. وما زال هارون الرشيد يستثير مشاعر رومانتيكية عن العظمةِ الإسلاميّة، وما زالت بغداد مرتبطة بإنجازاتٍ ثقافيةٍ مُتفرِّدة، خصوصًا في الفلسفة والشعر والطب؛ ومرتبطة باستيعاب الحكمة القديمة، الإغريقية على وجه التحديد (في بيت الحكمة). وما زالت قصص ألف ليلة وليلة قادرة على أن تمنحنا مذاق الحياة هناك، في ذلك الزمان.

إلا أن التاريخ العباسي مشوَّهٌ كذلك بالاغتيالات، والترف العبثي، وإساءة استخدام السلطة، وكثرة حركات العصيان والخروج، وانتهاك حُرمة المسلم واضطهادُه بيد المسلم، كما في حالة أحمد ابن حنبل، إبّان ما سُمّي بالمحنة؛ التي مثَّلَت محكمة تفتيشٍ في صيغةٍ إسلاميةٍ فرضها المأمون طوال عشرين عامًا فحسب، لحسن الحظ. وقد اضمحلَّت الإمبراطورية ببطء إلى النقطة التي أمكَن معها إزالتها بسهولة على يد المغول في عام 1258م.

أهذه هي الحقبة التي يتعيَّن على المسلمين استلهامها كمثالٍ يُحتذى؟

*****

على هذه الخلفيّة، قد يشعر الإنسان أن الإسلام كان وما يزال، طوال ألف عامٍ؛ في انحطاطٍ مُستمِر. ألم يُحذِّر نبي هذه الأمة أتباعه بأن كل جيل يلي بعثته أقل خيرية من سابقه؟[٣] وبالتأكيد جمع البخاري في كتاب الفِتَن من صحيحه تنبؤاتٍ عديدةٍ أليمة، بما في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شرٌ منه حتى تلقوا ربَّكم".[٤]

وقد يرى آخرون (من المسلمين) التاريخ بوصفهِ موجات، سلسلة من عمليّات الصعود والهبوط، تتحرَّك، إن صح ذلك؛ في صورةٍ حلزونيّةٍ. لكن ما زال بعض المسلمين، المتفائلين هذه المرة؛ يعتقدون أن الإسلام مقدور له تحقيق تطورٍ خطي ثابت.

٣- "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي قوم تسبق أيمانهم شهادتهم وشهادتهم أيمانهم". رواه الشيخان.

٤- رواه البخاري بسنده عن أنس بن مالك.

كل من هذه الطوائف الثلاث يُمكن له تأصيل نظرته، في القرآن أو المصادِر التُراثيّة الصحيحة؛ لكن ألم يُحذِّر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الإسلام قد "بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ"؟[٥] ألم يتنبأ بافتراق المسلمين إلى ثلاث وسبعين فرقة، كما افترقت يهود إلى واحدٍ وسبعين، وافترق المسيحيون إلى ثنتين وسبعين؟[٦]

على الجانب الآخر؛ ألم يشهَد دين الله تجدُّدًا في كل مرَّةٍ يُعاني فيها انحطاطًا؟ ألا نتوقَّع مُجدِّدًا للإسلام على رأس كل مائة، بحسب الحديث: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يُجدِّد لها دينها"؟[٧] وقد اعتبر أبو حامد الغزالي (المتوفّى 1111م) نفسه مُجدِّدًا كما يُستنبَطُ من عنوان سِفره الأشهر: إحياء علوم الدين. كذا يُمكن اعتبار ابن تيمية (المتوفى 1328م)، وشاه ولي الله الدهلوي (المتوفى 1763م)، ومحمد بن عبد الوهاب (المتوفى 1787م)، والشيخ محمد عبده (المتوفى 1905م)، بكتابه "رسالة التوحيد" المنشور عام 1897م؛ من بين مُجدِّدي الإسلام. وعلى أي حال؛ فقد ارتضى أحمد السرهندي (المتوفى 1624م) لقب: "مُجدِّد الألف الثاني".

*****

بالنظر لكل هذا، لا يجب أن يرزَح المسلمون مُحبطين تحت وطأة الوقائع الكارثية لتاريخهم القريب، والتي خُصَّت بالحملات الصليبية، وإعادة استيلاء المسيحيين على الأندلُس، وموجات الكولونيالية، والهجمة الشيوعية، وتفشّي الاستبداد، وشيوع الانحلال، والعدوان الصهيوني. ففي نهاية الأمر، وطوال مئتي سنة؛ لم يكن المسلمون بقادرين على الحيلولة دون تدنيس الصليبيين لبعض البقاع في القلب من أراضيهم، وثالث أقدس مُدن الإسلام: القُدس. لكنَّ الصليبيين غادروا بعدها.

وقد جعلت ذروة هذه الأحداث المنغِّصة الأمر يبدو لوهلةٍ كما لو أن نهاية الإسلام قد حلَّت بلا ريب. فقد طُرِد المسلمون (واليهود) من الأندلس، بعد سبعمائة عامٍ من الحضارة الإسلامية المجيدة؛ بواسطة الحُكَّام الجُدد: فرناندو وإيزابيلا؛ اللذين اعتبرا نفسيهما مسيحيين استثنائيين في عظمتهما.

٥- رواه مسلم بهذا اللفظ عن أبي هريرة، كما رواه أحمد والدارمي وابن ماجه وأبو يعلى والترمذي عن ابن مسعود.

٦- "تفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا واحدة". وكل طرق هذا الحديث مناكير وغرائب ضعيفة ومنكرة. وقد تنكَّب الشيخان عنه ولم يُخرجاه، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم، وحكم ابن حزم بعدم صحته، وغمز في صحته ابن تيمية، برغم أنه هو نفسه يُصححه!

٧- رواه أبو داود بهذا اللفظ عن أبي هريرة، وصححه الحاكم.

وابتداءًا من القرن الثامن عشر الميلادي، مع احتلال نابوليون للقاهرة؛ دُشِّنَ نمطٌ كولونيالي جديد، نمطٌ تأسس على التفوق التقني الساحق للقوى الكولونيالية الغربية، التي احتلَّت الأقاليم المسلمة، وتحديدًا القوى البريطانية والفرنسية والهولندية والإسبانية والروسية. وفي النهاية؛ لم يبق تحت الحكم التركي، ومن ثم الإسلامي؛ سوى مساحة جد ضئيلة من دار الإسلام: قسمٌ من جزيرة العرب يشمل مكة والمدينة.

وخلال كلا الحربين العالميتين، استخدم المستعمِرون ومنافِسوهم، على حدٍ سواء؛ جنودًا مسلمين، خصوصًا من الجزائر والبوسنة وروسيا والسنغال؛ كوقودٍ للمدافِع في سوح المعارك الأوروبية.

كانت حالة مكة والمدينة، قلب الإسلام؛ هي أكثر ما يُثير الأسى خلال القرن التاسع عشر تحديدًا، وذلك بحسب وصف المسلم السويسري يوهان لودفيغ بوركهارد (1815م)،[8] ووصف المتحوِّل المذبذَب سير ريتشارد برتون (1853م)، والألماني مُدَّعي الإسلام هاينريش فون مالتزان (1860م). إذ أكَّد الرحالة الثلاثة أن الحَرَمانِ في زمانهم كانا يُعانيان الاضمحلال والقذارة وانعدام الأمن، وتسودهما الخرافات. وصدِّق أو لا تُصدِّق؛ كان البِغاء والخمر متوفِّرين أمام أبواب الحرمين مباشرة، وأحيانًا في داخلهما. وفي تلك الأيام، لم يبلُغ عدد الحُجاج المسلمين مليوني حاج سنويًا كما هو الحال اليوم، بل كانوا سبعين ألفًا فحسب في عام 1814م، بل وأقل من ذلك في عام 1860م: ثلاثين ألفًا فحسب.

هذا الانحطاط الواضِح للإسلام، الذي بلغ أوجه في القرن التاسع عشر؛ دفع الألماني الذي ترجم القرآن عام 1900م، ماكس هننغ؛ في تصديره لترجمته إلى التنبؤ بالاختفاء الكُلي للإسلام كفاعلٍ سياسي. وقد بدت مثل تلك التوقُّعات معقولة ومُبررة، لكنها كانت رؤية أشخاصٍ يفتقدون للمعرفة الحميمة بعالم الإسلام. وإلا كانوا سيُصدَمون بإمكانات إعادة الإحياء والتجديد، والتي مثَّلها مُصلِحون أمثال شاه ولي الله الدهلوي (المتوفى 1763م)، ومحمد بن عبدالوهاب (المتوفى 1787م)، وجمال الدين الأفغاني (المتوفى 1897م)، ومحمد عبده (المتوفى 1905م)، ورشيد رضا (المتوفى 1935م)، وحسن البنا (المتوفى 1949م)، وسيد قُطب (المتوفى 1966م)، وأبو الأعلى المودودي (المتوفى 1979م)، وكثيرون غيرهم.

وبالفعل، فبدلًا من أن يصير غير ذي موضوع؛ صار الإسلام في القرن العشرين هو الموضوع الأكثر أهمية للعالم المعاصِر، وذلك بفضل الصحوة الكُبرى منذ سبعينيات القرن العشرين. وربما كانت توسِعة الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، ليتسعا لستمائة وخمسين ألف مُصلٍّ وأربعمائة وثمانين ألف مُصلٍّ، على التوالي؛ من الدلالات الرمزية على هذه الصحوة التي شَهِدها الإسلام.

8- Johann Ludwig Burckhard: *In Mekka and Medina,* Berlin, 1830.

هذا التطوّر كان نتيجة لهجرة المسلمين واسعة النطاق إلى الدول الغربية، وبالأساس من شبه القارة الهندية (إلى بريطانيا)، ومن المغرب (إلى فرنسا وبلجيكا)، ومن تركيا والبوسنة (إلى ألمانيا). وقد ازداد هذا التدفُّق مع الأعداد الكبيرة من اللاجئين المسلمين الفارّين من الاضطهاد فيما يُسمّى بـ"العالم الإسلامي". ونتيجة لذلك، يوجد حاليًا حوالي أربعة عشر مليون مُسلم في أوروبا الغربية، وخمسة ملايين في الولايات المتحدة.

وإذا كان الوضع في أمريكا الشمالية مُشابِهٌ لأوروبا بدرجةٍ ما، فهو جد مختلف على مستويات عدَّة. فإذا كانت أمريكا هي الأخرى تحوي كُتلًا ضخمة من المهاجرين المسلمين، خصوصًا من شبه القارة الهندية والعالم العربي؛ فإن الكثيرين منهم (وبنسبةٍ تفوق ما في أوروبا) قَدِموا كأكاديميين، أو تخرَّجوا من جامعات أمريكا الشمالية. وبناء على ذلك؛ تُعتبر الأمة المسلمة الأمريكية أكثر يُسرًا وثقة بنفسها، وأشد فعالية على الصعيد السياسي بصورة أكبر من الأمة المسلمة الأوروبية.[٩]

وعلى أي حال؛ فقد عبَّر الوجود الإسلامي عن نفسه في كلا القارتين من خلال بناء المساجِد، وإصدار المطبوعات، وإنشاء المنظمات الإسلامية، وتزايُد أسواق الطعام الحلال، وانتشار الأزياء ذات الرمزية الدينية، فضلًا عن المدارِس ووكالات السفر والمقابِر الإسلامية. وقد غيَّر هذا الوجود الإسلامي المشهد الحضاري في الغرب بشكلٍ دائم. وشهدنا برلمانيين مسلمين أمريكيين وبريطانيين وألمان، وسفراء مسلمين لأمريكا وألمانيا وإيطاليا، وأساتذة جامعيين في كل مكان. وفي الوقت الحاضِر؛ فإن حجم المساجِد التي تُبنى في ألمانيا أكثر بكثير من الكنائِس. وفي كل موطِنٍ يولَدُ أطفالٌ مسلمون أكثر من غيرهم. وفي الواقع؛ فقد صار الإسلام، لبعض الوقت بالفعل؛ هو الدين الوحيد الذي يُحقق نموًا.

جديرٌ بالذكر كذلك أن عدد الغربيين المتحوّلين للإسلام، على خُطى رينيه غينو، وتيتوس بوركهارت، ومارتن لنغز، وليوبولد ڤايس (محمد أسد)؛ هو في ارتفاعٍ دائم. وفي الوقت نفسه، تُبدي الكنائس المسيحية أمارات الهلع والانهزامية. ولهذا يسعى البابا الحالي[١٠] عبثًا لوضع الكنيسة الكاثوليكية في موقفٍ صراعيٍ، حتى في مواجهة الطوائف البروتستنتية. وعلى التوازي؛ يبدو بعض رجال الدين البروتستنت مُنشغلين، ليس في ألمانيا وحدها؛ بالتخلُّص من المعتقدات والممارسات التي منحتهم مصداقية فيما سبق. وهكذا اختُزِلَت كنائِسُهُم إلى محض مؤسسات رفاهٍ اجتماعيٍ، بغير أي بُعدٍ مُتجاوزٍ.

٩- أكثر المهاجرين المسلمين إلى أوروبا هم من العمالة الفقيرة، المتدنية التعليم؛ والتي فرَّت -حرفيًا!- من بلدانها بحثًا عن القوت. ومن ثم؛ فطبيعة المجتمع المسلم هناك تختلف عن طبيعته في أمريكا، وبصورة واضحة. (المعرِّب)

١٠- المقصود هو البابا بندكت السادس عشر (جوزيف راتزنغر)، البابا الخامس والستون بعد المائتين للكنيسة الكاثوليكية؛ والذي انتُخب في 2005م، واستقال في 2013م. (المعرِّب)

في عام 1934م، كتب محمد أسد، في كتابه: "الإسلام على مفترق طرق"؛ أن عقيدة بنوَّة يسوع المسيح لله تعالى كانت أكثر العناصِر الفكرية مركزية في الحيلولة دون تجديد دين أوروبا. إذ صارت المسيحية، برغم ما قد يبدو في ذلك من عبثية؛ السبب الأهم لشيوع الإلحاد. ويبدو أن الموجة المعاصِرة من اللاأدرية والإلحاد، التي تَصِمُ أوروبا اليوم؛ تصدق نبوءة أسد.

أهذا يعني أن الإسلام قد استقرَّ الآن، ولمرَّةٍ واحدةٍ؛ في الجانِب الرابح؟

على العكس تمامًا؛ فالإسلام يمرُّ الآن بأزمة، وإن كان يشهد نموًا في الوقت نفسه. فهؤلاء الذين خيَّبَت الدوغمائيات المسيحية رجاءهم لا ينظرون للإسلام بوصفِه بديلًا صالحًا. إن المنسلِخين من المسيحية لا يدخلون في دين الله أفواجًا كما تَصِفُ سورة النصر، بل يُروجون لسوقٍ للنِحَلِ والعبادات الجديدة رغبة بإشباع الطلب على التجارِب الباطنية التي لا تتطلَّب منهم أدنى التزام. لقد عُوِّض فُقدانُ الإيمان بالله، وبدرجةٍ كبيرةٍ؛ بالأمل في التقدُّم (الدائم!) الذي لا غاية له ولا نهاية.

صحيح أن الإسلام لم يَعُد يُتوقَّعُ له أن يختفي، بل أن يتوسَّع إن لم ينفجِر؛ لكنه يُعامَلُ كذلك بوصفِهِ تهديدًا إرهابيًا وردَّة إلى البربرية. وبعبارةٍ أخرى؛ لم يعُد الإسلام اليوم يُثمر تعاطُفًا في عيون الغرب، بل هلعًا.

ثانيًا: أزمة الإسلام الحاليّة:

تتطابق أزمة الإسلام الحالية في الغرب مع حال الإسلام في العالم الإسلامي نفسه. إذ لم يَعُد الأخير عالمًا يستشعِرُ فيه المسلمون الانتماء بصورةٍ طبيعية، ليس بوصفهم مواطنين؛ بل باعتبارهم مؤمنين، ومن ثم ينتمون لأمةٍ واحدةٍ. وما عاد العالم الإسلامي عالمًا تَفقِدُ فيه التقنية الحديثة بُعدها المدمِّرُ للإنسان، لأن مُستخدميها مُسلمين أُصلاء. وما عاد هو العالم الذي يُفرَدُ فيه الله وحده بالعبودية، ويُقصَر له الخضوع سبحانه وتعالى. بل على العكس؛ فقد عَبَدَ ما يُسمَّى بـ"العالم الإسلامي"، في كثير من الأحوال؛ آلهة الجمال والشباب والقوة والجنس والمال والشُهرة والمكانة واللذة، بما لا يختلِفُ كثيرًا عن الغرب المادي. وفي الواقِع، فإن الرذيلة الغربية في منح الأولوية الاقتصادية للكفاءة والإنتاجية والنمو وتعظيم الربح تكتسب كذلك، وباطراد سريع؛ أرضيةً في عالم المسلمين. إذ في مواطِن يُفترضُ إسلامها، مثل أزمير وإسطنبول؛ يستشعِرُ الإنسان كأنه في مُدُنٍ وثنيةٍ حديثة، ليبدو الأذان شذوذًا عرضيًا في غمرة النمط الذي تَلِغُ فيه.

وفي مقابل ذلك، فإن الفضيلة الإسلامية في إظهار عناية فائقة بالإنسان وحاجاتِهِ الفيزيقية والعاطفية والروحية يجري تقويضها. ففي واقع الأمر، صارت الأمة المسلمة، التي طالما عنيت بجودة الحياة؛ مُهدَّدة بصورةٍ مُتزايدةٍ بالهوس الكمّي الغربي في كل مجالات

الحياة. وبعبارةٍ أخرى؛ فإن العلمنة الغربية في صورة الأيديولوجيات الماديّة والاستهلاكية الصاعِقة قد أصابَت عدواها عالم المسلمين هو الآخر، واستفحلت. وثم خطر حقيقي في أن يصير أغلبية المسلمين مسلمون اسمًا فحسب، تمامًا كما هي حال مُعظَم المسيحيين اليوم، إذ صاروا محض "مسيحيي الهوية الثقافية"، أو مجرَّد "مسيحيين بالوراثة" و"مسيحيين غير مُلتزمين".

*****

وعمومًا، فيبدو أن العالم الثالث، بما فيه عالم المسلمين؛ يواجِه موجة جديدة من الكولونيالية سلميّة الظاهِر، في صورة العولمة.

يُمكن للمرء الزعم بأنه كان ثم تبادُلٍ بين الحضارات المختلفة على الدوام. وتمامًا كما يتدفَّق الماء نازلًا من مُنحدَرٍ، فإن المنتجات الأعلى في سُلَّم الكفاءة ستُزيح تلك الأدنى منزلةً من السوق. وهو ما حدث مع آنية الخزف الصيني في الغرب، ومع الأرقام الهندية، ومع الطب العربي. وهو ما يحدُث الآن مع تقنية الحواسِب الأمريكية.

كل هذا صحيح. إلا أن القدرة العالمية للحضارة الغربية الحالية على اجتياح ما سواها، ليس لها نظير تاريخي. ففي العصور الوسطى؛ كان بوسع الأوروبيين استيعاب الطب العربي بغير اعتناقٍ للإسلام. إلا أنه من المستحيل عمليًا اليوم ابتياع جهازٍ تقنيّ غربيٍّ، بغير شراء الأيديولوجية المادية الكامنة خلفه بذات الوقت.

والعجرفة الغربيّة التي تُروِّجُ نمط الحياة التغريبي، بوصفه النمط الوحيد الصالِح؛ لم تَفقِد مصداقيّتها وقوّتها في العيون الغربية، على الأقل بسبب الكوارِث القريبة التي ضربت الغرب مُجسِّدَة في الشوفينية والعنصرية والفاشية والشيوعية والجرائم المصرفية. (كان موسوليني وفرانكو وستالين وهتلر جميعًا أوروبيين من خلفية مسيحية). بل على العكس تمامًا؛ ظل الشعور الغربي بالتفوّق الأخلاقي، وما يزال؛ كاملًا لم يُمَسّ.

وبعبارةٍ أخرى؛ تتعرَّضُ الأمة المسلمة لهجومٍ أيديولوجيٍ لم يحدُث من قبل في التاريخ الإسلامي. ونتيجة لذلك؛ فهي مُهدَّدة بخطر التحوّل لمسخٍ كاريكاتوري من الغرب. وفي الواقع، فحتى الإرهابيون "الإسلاميون" الذي يُقاتِلون الغرب "الملحد"، كما حدث في الحادي عشر من سبتمبر؛ هم أنفسهم غربيّون حتى النُخاع. مناهجهم وطرائقهم وأساليب تفكيرهم، جميعها من أخص مُنتجات الغرب الذي يحتقرونه بشدَّة.

وفي الغرب، يواجِه المسلمون هذا الوضع في صورة ضغطٍ ليس للاندماج في مُجتمعاتهم المضيفة فحسب، بل للتماهي معها لدرجة الذوبان والاستيعاب الكُلّي. والتطوّر الموصوف هو بدرجةٍ كبيرةٍ نتيجة للهيمنة الغربية فيما يُمكِن تسميته بـ"لعبة الإعلام". ذلك

أن المعركة الحضارية التي تستهدِفُ قلوب وعقول الخلق قد انتصر فيها، آخر الأمر؛ هؤلاء المتحكِّمين في الإعلام: الطباعة والتلفاز والإنترنت. صحيح أنه توجَد مُبادرات تلفازيّة عربيّة ناجحة، مثل الجزيرة في قطر. إلا أن الغرب قد رَبِح لعبة الإعلام عمومًا، وذلك حتى قبل أن تبدأ.

*****

والتفوّق العلمي الغربي على عالم الإسلام جِد فاضح بصورةٍ مُخجِلَةٍ. أليس صحيحًا أن المسلمين، الذين يتعرَّفون إلى ربهم ليس من خلال كتابِه فحسب، بل من خلال خلقه كذلك؛ كانوا سابقين لأوروبا، إبّان "عصورها المظلمة"؛ بوصفهم فردوس المعرفة والعقلانية والعلوم الطبيعية؟ إلا أنه بدءًا من القرن الخامس عشر الميلادي، حين أقلعَت العلوم الطبيعية الغربية –أولًا خلال عصر النهضة، ولاحقًا خلال عصر العقل (الاستنارة) و"الثورة العلمية" التي تلته– احتكر الغرب عمليًا جُلّ التقدُّم في العلوم الطبيعية، في حين عكف العالم الإسلامي على خرافاتٍ صوفيّةٍ انسحابيّة.

لذا؛ دُشِّن تطوّر الفيزياء الحديثة في ألمانيا، وليس في مصر أو الشام؛ على يد شخصيات حازت جائزة نوبل؛ أمثال: ماكس بلانك (المتوفى 1947م)، مؤسس فيزياء الكوانتم؛ وألبرت أينشتاين (المتوفى 1955م)، صاحب النظريّة النسبيّة؛ وڤرنر هايزنبرغ (المتوفى 1976م)، والذي كشف عن مبدأ اللاتيقُّن أو اللاتحدُّد الميكروفيزيائي عام 1927م. هؤلاء ونظراؤهم؛ أمثال: نيلز بور وماكس بورن وإرڤين شرودر وكارل فريدريش ڤون ڤايتسكر، على سبيل المثال وليس الحصر؛ لعبوا دورًا أساسيًا في تقويض التصوّرات التقليدية للمادة والسببية والزمان والمكان، وهكذا أعادوا فتح الباب لدخول الدين إلى مجال العلوم الطبيعية. وهو ما تمخَّض عن مقولة الفيزيائي ريتشارد سوينبرن: "ليس ثم احتمال في أن يكون الإله غائبًا عن هذا العالم".

وقد صار العالم الإسلامي خلال الفترة عينها، ويا للعار؛ ليس عاجزًا فحسب عن المنافسة العلمية، بل أُميًا إلى حدٍ كبير. أمرٌ يصعُب تصديقُهُ بحالٍ؛ أن الأمة التي يبدأ وحيها بلفظة: "إقرأ"، قد نست كيف تفعل ذلك. وحتى اليوم، في حين كَثُرَ عدد الفائزين من الكُتَّاب والشعراء المسلمين بجائزة نوبل، لا نَجِدُ سوى مسلمٍ واحدٍ، مصري الأصل؛ حاصِلٍ على جائزة نوبل بسبب إنجازاته العلمية.

*****

ونتيجة لذلك، غفل العالم الإسلامي عن أن علماء أوروبيين من الطراز الأول قد أعادوا تعبيد الطريق لإيمانٍ عقلاني بالألوهية. وقد حدث الأمر نفسه بفضل الفلسفة الأوروبية، ذلك أن عمالقة أمثال ديڤيد هيوم (المتوفى في 1776م، وصاحب كتاب:

مبحث خاص بالفهم الإنساني)، وإيمانويل كانط (المتوفى في 1804م، وصاحب كتاب: نقد العقل المحض)، ولودفيغ فيتجنشتاين (المتوفى 1951م، وصاحب كتاب: تحقيقات فلسفية)؛ قد قبلوا الحدود الضيّقة للعقل الإنساني، ليُعيدوا الاعتبار للإيمانِ العقلاني في الألوهية. ونتيجة لذلك، فضلًا عن تواضُع فيلسوف مسلم كأبي الحسن الأشعري (المتوفى 936م)، ووقوفه عند حده؛ صار اليوم بوسعنا الإيمان بالمقدَّس، بغير إسرافٍ في السؤال (بلا كيف). ومرَّة أخرى؛ فوَّت العالم الإسلامي القارب. فأكثر المسلمين لا يُدركون أن الإنسان لا يُمكنه إثبات وجود الله بالإشارة إلى كتابه، كما لا يُمكنهم استيعاب كون الإيمان بالوحي الإلهي يقتضي إيمانًا مُسبقًا بالألوهية نفسها.

*****

ومن الظواهر شديدة الغرابة، أن الإنسان في الولايات المتحدة أو أوروبا يُمكنه اتباع مُرشدٍ روحي هندوكي، أو ممارسة السحر الشاماني للهنود الحمر؛ بغير أية مجازفة بوظيفته أو بقبوله اجتماعيًا. فعادةً ما يُعَدُّ الالتزام الديني شأنًا خاصًا، قد يكون طريفًا أو شاذًا، لكنه غير مؤذٍ ابتداء. إذ يعمَد الخلق عمومًا لاتباع الاعتقاد الشائع، وغير الرسمي؛ لعصر السيولة: كل شيء يجوز! إلا إذا كان الدين المعنيُّ هو الإسلام؛ ففي تلك الحال يذوب التسامُح جُلُّه ويتلاشى. وفي حقيقة الأمر، فالإسلام هو الملة الوحيدة التي لا يُمكنها الاعتماد على التجاهُل اللطيف أو التسامُح المخلِص.

وأسباب هذه الحال الاستثنائية مُتشعِّبة ومركَّبة. بعضُها يعود إلى المواجهة التاريخية الدموية بين العالم المسيحي والإسلام على سواحِل البحر المتوسِّط.[11] (لهذا السبب، فضلًا عن كون المجتمع الأمريكي مُجتمعٌ مُتعدِّدُ الأعراق والأديان ابتداءً؛ فإن الإسلاموفوبيا هي ظاهرة أوروبية أكثر منها أمريكية).

فتاريخيًا؛ يتأسس العداء المسيحي للإسلام على ادعاءهم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان دجالًا. وأن ظهور بعثة نبوية جديدة بعد المسيح بستّة قرونٍ يُعتبر ليس فقط تجرُّؤًا بالمسيحية، بل إهانةً بحقها. وثم سبب تاريخي آخر للعداء، وهو التصوّر المسيحي عن الإسلام بوصفه دينًا عدوانيًا مُحاربًا. وقد استُنبِطَ ذلك من السرعة التي ميَّزت الفتوحات الإسلامية. فانطلاقًا من الحجاز؛ بلغ المسلمون القسطنطينية عام 668م، والهند عام 710م، بل وحتى أواسط فرنسا في عام 733م. وهكذا نشأت وتطوَّرت تلك الخرافة اللاتاريخية، والتي ما زال الإيمان بها سائدًا؛ بأن الإسلام انتشر بـ"الحديد والنار". وقد رسَّخت الإمبراطورية العثمانية هذه الأفكار المسبَقة عن عدوانية المسلمين حينما اجتاحت أوروبا الوسطى مرتين في طريقها إلى فيينا (أعوام1529، 1683م).

11- Karen Armstrong: Holy War, *The Crusades and their Impact on Today's World*, New York, 1988.

أضِف إلى ذلك أن المسيحيين انتقدوا مُحمدًا صلى الله عليه وسلم بسبب شهوانيته الجنسيّة المزعومة. وهكذا، وكما ورَد تكرارًا في كوميديا دانتي الليغيري الإلهية؛ فإن ازدراء الإسلام صار مُكوِّنًا أساسيًا في الوجدان الأوروبي، وما يزال.

ولذا، سيكون من قبيل التوهُّم الخطير أن نعتقِد بتلاشي أو ضمور الروح الصليبية الغربية، سواء بإعادة غزو المسيحيين للأندلُس عام 1492م، واستعادتهم إياها؛ أو بالمحاولة اليونانية الفاشلة لإعادة غزو الأناضول في عام 1922م. كذا، فبالتأكيد سيكون من الخطل التغاضي عن حقيقة عودة الحروب الدينية لمسرح العالم. وبيقين لن تكون كشمير والجزائر والبوسنة والشيشان وكوسوفو هي آخر أمثلتها.[١٢]

*****

ورغم ذلك كله، فسيكون من الظلم البيّن والتضليل الفاجر معًا أن نلوم الآخرين فحسب على مأزق المسلمين وتأخُّرهم وتخلُّفهم. إذ، لسوء الحظ؛ ساهَم عالم المسلمين بدرجةٍ كبيرةٍ في تدنيس صورته. فقد عزز مجرى الحوادِث في ليبيا القذافي، وفي إيران الخميني، وفي عراق صدام حسين، وفي مواطِن أخرى؛ عزز التحيُّزات الغربية المسبَقَة ضد الإسلام بصورةٍ هائلة. ونتيجة لذلك؛ رُبِطَ الإسلام بالتطرُّف والوحشيّة والعنف والتعصُّب والاستبداد وتجاهُل حقوق الإنسان، والتمييز ضد المرأة، وحتى بالظلامية. ويالها من لائحة!

وبناء على ذلك؛ يعتبر العديدون أن الإسلام في حرب مع الحداثة. وتزداد الأمور سوءًا بحقيقة "استحياء" عدَّة دول مُسلمة من القبول الكامل بمواثيق الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، وذلك بذريعة أن التشريع هو صلاحية إلهية محضة، وأن الشريعة الإلهية أسمى من هذه المواثيق؛ ومن ثم فيها الغنى والكفاية.

ولا عجب أن الإسهام التاريخي للمسلمين في الحضارة الغربية، بواسطة ابن سينا وابن رشد وابن خلدون؛ يتم تجاهُله كُليًا من ثم. وفي واقع الأمر، فإن ازدراء الإسلام هو من القوَّة بمكان اليوم عند الكثيرين، بما لا يُعتبَرُ معه الجهل بالثقافة الإسلامية جهلًا مُشينًا أو انتقاصًا في ثقافة المرء ومعرفته.

هذه هي خلفيّة المعامَلة مزدَوِجة المعايير، والتي يلقاها عادةً المسلمون من الغربيين. وإحدى الأمثلة على ذلك هو وصم الناشطين المسلمين بأنهم "أصوليون". هذه اللفظة، بحمولتها المشؤومة؛ مقصورة على المسلمين وحدهم، برغم الحضور الكثيف للأصوليين اليهود والمسيحيين والهندوس والعلمانيين من حولنا.

12-Akbar Ahmad: Bosnia, *The Last Crusade*, The Arab Review, London, 1993.

ودعنا لا نُخادِع أنفسنا؛ ذلك أن التحيُّز الغربي ضد الإسلام والافتراء عليه – وهو ما كان عليه الحال كذلك قبل الحادي عشر من سبتمبر– هو من القوة بالدرجة التي قد ينحل معها إلى عنفٍ مُعادٍ للمُسلمين في أي وقتٍ وأي مكان.

*****

وجليٌّ أنه بوسع المسلمين أنفسهم عمل الكثير، لنزع فتيل الوضع المتفجِّر. واللائحة التالية ليست نهائية:

١- يتبنى المسلمون في الغرب أنماطًا مُعينةً من السلوك يعتبرونها إسلامية، وذلك بغير أن تكون مُتأصِّلةً على الحقيقة في دينهم. وهذا ينطبق على قتل النساء في جرائم "الشرف"، وختان الإناث، والإكراه على "الزواج القسري". كل هذه العادات ليست فقط غير إسلامية، بل إن الشرع يُصنِّفُها (على التوالي) بأنها: قتل، وجراحة (تعذيب)، ونكاح باطل.

٢- وفي العموم، فإن أكثر المهاجرين المسلمين يواجهون مصاعب في التمييز بين العُرف المحلي لمجتمعاتهم الأصلية، وبين ما نصَّ عليه الشرع صراحةً. ومن ثم، يتعيّن عليهم بذل مزيدٍ من الجهد في دراسة قواعد عقيدة الإسلام وعباداته ومعاملاته.١٣ وخلال هذه العملية؛ سيكتشفون أن كثيرًا مما ظنوه إسلاميًا في السابق، كان مجرَّد عُرفٍ، إن لم يكن خرافة محضة. وبهذا الخصوص، فإن المتحوِّلين إلى الإسلام أفضلُ حالًا وأيسرُ مؤونة، ذلك أنهم يدخلون الإسلام وقد تخفَّفت ظهورهم من الفولكلور "الإسلامي" بأنواعه.

على هذه الخلفية، يتعيَّن على مُسلمي المشرِق تحديد أي من عاداتهم السلوكية ذات الصِبغَة الثقافية يُمكنهم التخلي عنه، وما الذي يتعيَّن عليهم التمسُّك به تحت أية ظروف، بوصفه لازمًا من لوازِم الإسلام. وما يُمكنهم التخلّي عنه يتعيَّن عليهم إسقاطه ببساطة، خصوصًا إذا كان إسلامهم سيصيرُ أكثر قبولًا بهذه الطريق.[١٤] وعلى سبيل المثال؛ فإن العديدين من الغربيين يُرجح نفورهم حين يشرع المسلمون في أوروبا، الذين يتيهون بزيّهم العربي أو الإندونيسي أو الهندي؛ في زخرفة عباراتهم باصطلاحاتٍ عربية إبان تسبيحهم أو ذِكرهم. في مثل هذه الحالات، يتم تصنيف الإسلام تلقائيًا بوصفِهِ دينًا أجنبيًا؛ غير صالحٍ للبُلدان

١٣- برغم أنها دعوة تجديدية مهمة، إلا أنها دعوة نظرية محضة غير قابلة للتنزيل على هذا النطاق الواسِع؛ فالأصلُ في التديُّن (أي تديُّن) هو التقليد، أما التجديد المبني على الدرس الناضج والمتحرِّر من الغواشي العُرفية والحواشي البشرية؛ فهو حالة استثائية لا يُمكن أن يضطلع بها كل أحد، بل هو عمل المصلحين والمجددين، والذين يُقلِّدهم المتدينون بدورهم! (المعرِّب)

١٤- دافِع "قبول الآخر" للإسلام بعد هذا التجديد/الإصلاح/العلمنة؛ يعني أن يصير ذلك "الآخر الغربي" هو المعيار فيما نأخذ وندع، لا التخفُّف من البدع التي ما أنزل الله بها من سُلطان؛ وهذا لعمري قمة الشرك وذروة انحراف التجديد وتشوّش وجهته. (المعرِّب)

الغربية. تحت مثل هذه الظروف؛ فإن المسلمين الغربيين أكثر ملائمة لترويج الإسلام في الغرب، لأنهم دليل على أن الإنسان الغربي لا يلزمه أن يصير شرقيًا، ليُمسي مُسلمًا.[١٥]

٣- يمتنع المسلمون في الغرب عادةً عن انتقاد أي شيء يقع في العالم الإسلامي، حتى إن كان أمرًا بغيضًا لأقصى درجة. وذلك انطلاقًا من مبدأ: "أصابوا أو أخطؤوا؛ هم إخواننا". إلا أن مثل هذا التضامُن الباهِر قد يؤدي بسهولة لنتائج عكسية. فالمسلمون في الغرب قمينون بفقد مصداقيّتهم الأخلاقية، إذا لم يحتفظوا بمسافة بينهم وبين الجرائم المرتكَبَة على يد مسلمين آخرين.

٤- يُطالِب المسلمون المقيمون في الغرب بالكثير من محيطهم غير المسلم:

- بناء مساجِد في قلب المدن التي يسكنونها، حيثُ يُمكن للأذان أن يبلُغ كل مكان.
- يريدون تدريس تعاليم الإسلام لأطفال المسلمين في المدارِس.
- يرغبون في ذبح لحومهم وفق الشريعة.
- يسعون لدفن مَوتاهُم في اتجاه مكة المكرمة.
- يرفضون الطعام المعَد بالكحول أو الخنزير، حتى إن كان ذلك بمقادير غاية الضآلة.
- يرغبون باستثناء أبنائهم من الدوام المدرسي خلال الأعياد الإسلامية.
- ويُصرّون على حجاب بناتهم في المدارِس، وعدم مشاركتهن في الفعاليات والرحلات المدرسية المختلَطة. يا للروعة!

١٥- هذا أيضًا من انحراف وجهة الدعوة. فنجاح الدعوة الذي يتباكى عليه هوفمان لا يكون إلا بالقدوة الحسنة، وتمسُّك المسلمين بتعاليم القرآن، وحرصهم على تجسيدها لغيرهم. وبعد الفتوح، أسلم من أسلم من أهل مصر وأهل فارس، وغيرهما من الأمصار؛ بغير هذا اللغو عن اللغة والبيان. وإذا كانت دعوة الناس بلسانهم جد مهمة في بادئ الأمر، إلا أن الدعوة بالنفس تبقى هي الأولوية الأولى والأهم والأسبق على البيان باللسان. وما من مُسلمٍ صدق الله وأحسن الامتثال له، إلا وهدى الله به كثيرًا من خلقه، من المسلمين العُصاة ومن المشركين؛ على حد سواء. وتركيز المؤلف هنا على دور البيان في الدعوة؛ سببه فشل المسلمين الذريع في تجسيد القيم الإسلامية، بعد أن انسلخوا من الإسلام واستبطنوا القيم المادية، كما يُشير هو نفسه في موضعٍ سابق. أما اللغة؛ فلا يكتملُ إيمان المرء حتى يُحسن لُغة القرآن، وبها وحده يكتمل البلاغ والحُجة. فالتعرُّب شطر الإيمان. (المعرِّب)

ومما لا شك فيه أن على المسلم ألا يتجاهل أيًا من هذه المتطلبات. لكن السعي لتحقيقها كلها فورًا، على التوازي وبغير ترتيبٍ للأولويات؛ ليس بالحاجة المِلحَّة. فعلى الأرجح، سيحصل المسلمون على حقوقهم المدنية بصورةٍ أسرع وأكثر اكتمالًا إذا رأى المجتمع الغربي أنهم لا يُطالِبون فحسب؛ بل يُسهِمون فيه كذلك إسهامًا مُفيدًا.

٥- ويُمكن تجنُّب كثيرٍ من التحيُّزات المسبقة المعادية للإسلام من خلال تطهير الكتب المدرسيّة من المادة المعادية للإسلام في التاريخ والدين واللاهوت والجغرافيا. وبفضل جهود البروفسور الراحل عبد الجواد فلاتوري، ثم بداية تم تدشينها في هذا الاتجاه ابتداءً، في كل من ألمانيا والدنمارك وهولندا وفنلندا.

فإذا لم يضطلع المسلمون بهذه المهمة، فمن سواهم سيفعل؟

٦- وفي حين تُلقى العظات في الكنائس الغربية باللغة المحليّة، للبلد الذي تُلقى فيه؛ فإن خطبة الجمعة تُلقى في المساجِد باللسان العامي للجماهير المسلمة المهاجِرة، الألبانية والعربية والبوسنوية والأردية أو التُركية. ونتيجة لذلك؛ فإن أكثر المساجِد تستهدِفُ جمهورًا إثنيًا مُحددًا. وهذا سيء بما فيه الكفاية للصد عن سبيل الله. إن عدم فهم ما يُقال في المساجِد؛ يجعل غير المسلمين يتوتّرون ويرتابون، وهو ما يزيد الطين بلة. لذا، يجب أن تعمل إدارات المساجِد على استهداف المرحلة التي تُلقى فيها الخُطَب باللغة المحلية للبلد. وإذا لم يحدُث ذلك؛ فمن المرجَّح أنهم سيفقدون الجيل الثالث من شباب المسلمين، الذين ليسوا بنفس رسوخ القدم في لُغات ومُصطلحات أجدادهم.

٧- على أطفال المسلمين في الغرب أن يجعلوا هدفهم التخصُّص في دراسة القانون والصحافة والعلوم الطبيعية، وليس الآداب وسائر التخصُّصات "الناعمة"، كما هو مُعتادٌ في المجتمع المسلم. إن لدينا ما يكفي من المسلمين المشتَغِلين بالأدب. لكن أكثر ما نحتاجه هو المنافسة في العلوم "الخشنة".[١٦] وهو ما يحدُث أصلًا في الولايات المتحدة، حيث صارت نسبة جد كبيرة من المسلمين أطباء بشريين. وقد أفادت الأمة المسلمة الأمريكية برُمتها من هذه الحقيقة البدهية. إذ شاع القول بأنه أينما وُجِدَ مُسلم أمريكي؛ فهو على الأرجح طبيب.

١٦- هذه حجة متواترة في أكثر أدبيات المسلمين الحداثيين. وقد حمل لوائها في العالم العربي الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله؛ والجيل الذي تتلمذ عليه، حتى صارت العلوم الطبيعية، وما يُسميه المؤلف بالتخصصات "الخشنة"؛ في روعهم خلاصًا حقيقيًا للمسلمين! وقد أثبتت الأيام ليس ابتذال هذه الأطروحة فحسب؛ بل أنها الباب الملكي لتفشي الإلحاد، بعد هيمنة الرؤية المادية الآلية (بدراسة التخصصات العلمية والقانون)، والتي انتقدها هوفمان نفسه قبل عدة صفحات! (المعرِّب)

٨- برغم اعتناق كثير من نساء الغرب للإسلام؛ فإن كثيرات يأبين ذلك لسببٍ واحدٍ فحسب: التمييز المشهود على نطاق واسع ضد المرأة في الإسلام، كما في المجتمع المسلم. ويُمكن بالكاد إنكار وجود هذا التمييز. فالحقيقة أن المرأة المسلمة اليوم أسوأ حالًا من حفصة وعائشة في بيت النبي. وتاريخيًا، يُمكن إثبات عودة السلوكيات "الذكورية" السابقة على الإسلام إلى المجتمع المسلم تحت عمر، ثاني الخلفاء. ومنذ ذلك الوقت والمجتمع المسلم خاضع للهيمنة الذكورية، بعد أن تم تهميش النساء في كثير من الأحيان تحت ستار الدين. وهكذا، نسي كثير من المسلمين أنه في حين لا يتطابق الرجل والمرأة، وفي حين يلعبون أدوارًا مُختلفةً؛ فإنهم مُتكاملين ومتساوين في القيمة. وينبغي من ثم أن يصير معلومًا للعامة أن آية سورة المائدة الخامسة،[١٧] حين توضَع جنبًا إلى جنب مع الآية التاسعة والعشرين بعد المائة من سورة النساء؛[١٨] فإنها تحظُر التعدُّد في الإسلام ابتداءً. ولا يلزم فهم الآية الرابعة والثلاثين من سورة النساء[١٩] بوصفها إنزال للمرأة في منزلةٍ أدنى. بل يُمكن قراءتها لتعني أن "على الرجال العناية بالنساء تمام العناية"، كما ذهب لذلك محمد أسد.[٢٠]

إن من الميسور إدراك ضآلة فرص الإسلام مع نساء الغرب، نصف السكان؛ ما لم يُغيِّر المهاجرون المسلمون شوفينيتهم الذكورية. إن المسلمين الأمريكيين والأوروبيين يحدون القافلة من خلال دمج المسلمات في عملهم الدعوي، بوصفهن رئيسات للمراكز الدعوية، على سبيل المثال. وما لم يقتنع أهل الغرب أن النساء في الإسلام يتمتَّعن بنفس المكانة الدينية كالرجال -ذات الحقوق والواجبات والخاتمة، وعين الكرامة والقيمة الروحية؛ إضافة لجوهر الطبيعة الإنسانية- فإن العمل الدعوي الإسلامي في الغرب يكاد يكون ميؤوسًا منه.

٩- كان المسلمون فيما مضى يتلقون العلم أساسًا من خلال حفظ النصوص عن ظهر قلب. وهو ما توافَق مع مبدأ التقليد؛ أن كل ما يلزم الإنسان معرفته مطروح على الطاولة ابتداءً، وبصورة لا تقبل الجدل؛ وقد ظل كذلك طوال ألف وأربعمائة عام.[٢١] ولا عجب أنه من بين كل الأمم والشعوب، فإن المسلمين هم الأكثر أميّة وافتقارًا للعقلية النقدية، رغم أنهم أتباع دينٍ بدأ بالأمر: "إقرأ"! إنها ليست مُجرَّد فضيحة. إنه انسلاخٌ من الإسلام.

---

١٧ - "والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهُن أجورهن مُحصنين غير مسافحين ولا متخذات أخدان".

١٨ - "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم".

١٩ - "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله به بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم".

20- Muhammad Asad: *The Message of the Quran*, Gabriltar, 1980.

٢١- التقليد لا يتطلَّب الحفظ عن ظهر قلب بالضرورة، ولا العكس قد يصح هو الآخر بالضرورة؛ والربط الحتمي بينهما تضليل. فالمقلِّد المسلم يتعيَّن عليه اتباع الدليل، ولو نظريًا؛ لا اتباع ما درج عليه وحفظه عن ظهر قلب. ووضع التقليد والتجديد/الإصلاح على طرفي نقيض هو من باب التضليل؛ فلا تديُّن بغير تقليد. لكن شتان بين تقليدٍ وتقليد. (المعرِّب)

إن حفظ القرآن، كلام الله؛ هو بكل تأكيدٍ أصل ثابت تحت أية ظروف. لكنه لا يحل محل التنافُس في حقولٍ أخرى من المعارف الأساسية.

١٠- عادةً ما كان المسلمون في وضعٍ مُخجلٍ بسبب معرفة "المستشرقين" الغربيين الحميمة بدينهم. هنري لاوست، برنارد لويس، دانيال غيماريت، إغناز غولدزيهر، وغوردن كرامر، آن ماري شيمل، وتيلمان ناجيل؛ هم بعض الأمثلة البارزة. أليس الوقت أكثر ما يكون ملائمة ليرد عالم المسلمين الجميل، ويُخرِّج "مُستغربين" على ذات القدر من التنافُسية؟ وإلا فكيف سيمكن الوصول لحوار حقيقي بين الأديان؟[٢٢]

١١- المسلمون فخورون بأن بنوكهم قد أدت أداءً حسنًا إبّان الأزمة المالية الأخيرة، رافضين أي صورة من صور الخيال. لكن بعض منتجات تلك البنوك تعمل مع الخيال التقوي. ففي بعض الأحيان يتم تجنُّب سداد الفائدة على الورق فقط، وبصورةٍ شكلية؛ وليس في الواقع.[٢٣]

١٢-العقوبات الجنائية الإسلامية قمينة بأن تصطدم بـ"مدفعية مضادة"، ولو كان ذلك فقط لأنها لا تستبعِد أحكام الإعدام بالكلية. إلا أنه يُمكن إضعاف المعارضة التي يواجهها تطبيق الحدود الجنائية بشكلٍ واضِحٍ، إذا امتنع المسلمون عن اعتبار رجم الزُناة إسلاميًا، فهو موجود فقط في الشريعة اليهودية.[٢٤] أما القرآن، فإنه يتعامل مع الزنا تحديدًا بغير حكم الإعدام.[٢٥]

٢٢- الحقيقة أن ذلك لا يحدُث إلا بتغيُّر موازين القوى النفسية والعقدية، للأفراد ثم في المجتمعات؛ ساعتها يصير "الآخر" الحضاري موضوعًا للدرس بدل أن يكون موضوعًا للتقديس، كما هو الحال الآن. وقد حدث ذلك بدرجة شديدة الوضوح مع عبد الوهاب المسيري، وسيد قطب، وجلال آل أحمد، وسائر دارسي الأدب الذي ينتقده المؤلف وأضرابه! أما محاولة حسن حنفي التأسيس لما سماه بـ"علم الاستغراب"، ومحاولة بعض الإسلاميين تلقُّف المحاولة؛ فهو في مجمله مُجرَّد رد فعل رومانتيكي سخيف ومبتذل على الإمبريالية المعرفية الغربية، رد فعل إلحادي ينتمي للمدرسة ما بعد الكولونيالية، ولا علاقة له بالإسلام. ويزيد المسألة ابتذالًا إن كان الدافع هو ما يسميه هوفمان بـ"الحوار بين الأديان"، فهذا الحوار مُجرَّد خرافة لا يؤمن بها سوى الفارغين والمفرغين، فإنما يكون الحوار بين مُتكافئين في القوة، وليس بين جلادٍ ومُستضعف. وحتى في حالة تساوي القوى؛ فإن الحوار يصير مجرَّد أداة لتمرير المصالح وتنفيذ الاستراتيجيات، ولا يصير بذاته هدفًا على الإطلاق. (المعرِّب)

٢٣ – هذا حقيقي بدرجةٍ كبيرة. لكنك تشعُر كما لو كان المؤلف حانق على المسألة بدون سبب "منطقي"! فإذا كنا نوافقه على أن المصارف "الإسلامية" مجرد شعوذة سياسية واستخباراتية يُخدع بها المغفلين، إلا أن "نجاة" مثل هذه المصارف من الأزمات المالية ليس مما يُثير هذا الحنق "غير المبرر"، إلا لو كانت مصلحة المؤلف مرتبطة بما يُناقِضُها! (المعرِّب)

٢٤- هنا أيضًا يبدو ضيق صدر المؤلف (غير المبرر!)، كأنه يُريد إنكار الحدود الجنائية الإسلامية، لمجرَّد استرضاء الغرب الذي ما زال ينتمي إليه كُليًا. وهو من ثم يُحاوِل البحث عن مخرج "عقلاني"، من "البربرية" القروسطية للحدود الجنائية؛ يمكن تأصيله شرعيًا. وهذا هو تعريف الهزيمة النفسية! (المعرِّب)

١٣- يواجِه المسلمون واقعًا مريرًا يُمكن فقط تجاوزه إذا تمسَّكوا بأهداب فضائلهم الأساسية: مراقبة الله والعدل والرحمة والأخوة والصبر والدأب. لكننا في الحياة اليومية نجد كثيرًا من المسلمين مُستغرِقين ابتداءً في إشكالاتٍ ثانوية، أو حتى في أمورٍ دون ذلك أهمية. إنهم يسألون أنفسهم:

- إذا ما كانت الموسيقى حلالًا؟
- إذا كان صبغ الشعر يُبطِلُ الوضوء؟
- إذا كانت الأسنان الذهبية جائزة؟
- إذا كانت مستحضرات التجميل التي يدخُل الكحول في مكوناتها حلالًا؟
- إذا كان الجائز للمسلم أن يكون أعسرًا؟
- إذا كان من المحرَّم الاحتفال بأعياد الميلاد؟

١٤- فإذ تُعلِّق النساء قُصاصاتٍ من ثيابهن في قبور هؤلاء؛ رغبة في نيل معونتهم. أهذا يختلف كثيرًا عن ظواهر لورديس أو فاتيما المسيحية؟ هل يحتاج المسلمون هم أيضًا لمقدَّساتٍ مُجسَّمةٍ يُمكن للإنسان لمسها والتفاعُل معها عاطفيًا مثل يسوع الطفل في المذود؟[٢٦]

١٥- طوال ألف وأربعمائة عام، حلم المجتمع المسلم بدولة إسلامية مثالية بغير تحقيق لذلك الحلم. واليوم، فإن العالم الإسلامي ممزق إلى دولٍ قوميةٍ ذات سيادة، مثله مثل بقية العالم. لكن ليست الوحدة الإسلامية وحدها هي السريعة الزوال، بل

٢٥- "ولا تقربوا الزنا؛ إنه كان فاحشة وساء سبيلا" (سورة الإسراء، الآية 32)، "الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين" (سورة النور، الآية الثانية).

٢٦- التجسيم نزوع إنساني فطري تنتكس له تصورات البشرية في أي زمان ومكان، وليست أمة محمد صلى الله عليه وسلم استثناءً من ذلك. وقد انتكس بنو إسرائيل، بعد أن أنجاهم الله مباشرة؛ فقالوا لموسى: "اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة"، وتبدى إصرارهم على التجسيم حين اتخذوا من حُليهم عجلًا جسدًا له خوار، بمجرد أن فارقهم موسى لميقات ربه. ومع درجة التجريد الهائلة التي يتطلبها الإسلام في الإيمان بالغيب، خصوصًا بعد توقُّف الوحي وختم الرسالة وقبض الموحى إليه صلى الله عليه وسلم؛ فإن ميل من انتكست تصوراتهم من المسلمين للتجسيم يصير أقوى من الأمم الأخرى. فتجد ميل أكثر عوام المسلمين، خصوصًا الصوفية والشيعة؛ إلى التجسيم يتجلى في زيارة قبول الأولياء والاستعانة بهم. وحتى عند أصحاب المعتقد السلفي (أمثال الحركة الوهابية)، والذين يرفضون التجسيم البراني ويكفرون بالولاية ويعتبرون الاستعانة بالأولياء شركًا؛ فإنهم يُعوِّضون ذلك بالتجسيم في حق المولى سبحانه وتعالى. ويبدو أن الرغبة الإنسانية (المنحرفة؟) في تجسيم المقدَّس يجب أن تجد لها مصرفًا، ولو بصورة لا شعورية. (المعرِّب)

كذلك مُطالبة المسلمين العدل. وفي حقيقة الأمر؛ فليس ثم دولة مسلمة واحدة يمكن لها الادعاء بأنها بلغت مرحلة الحُكم بالإجماع والشورى كما اشترط القرآن،[٢٧] برغم أنه التزامٌ ديني أساسي؛ آخذين في الاعتبار أن كل فردٍ مسلمٍ هو خليفة لله في أرضه.[٢٨] وما زال كثيرٌ من المسلمين يتصرَّفون كما لو كانت الديمقراطية البرلمانية غير متوافِقة مع الإسلام.[٢٩] فيا للعار!

ثالثًا: أزمة بلا نهاية:

يؤدي بنا الاستعراض السالِف لاستنتاجٍ مفاده أن الأمة المسلمة كانت دومًا في أزمة. وبعد مرور ألف وأربعمائة عام من تكرار ذلك النمط، يبدو من المعقول القول بأن المسلمين سيضطرون كذلك لخوض غمار الأزمات في مستقبلهم، وإلى يوم الدين. فهذا، رغم كل شيء؛ هو حال الإنسانية.

لكن الله تعالى لم يجعل علينا في الدين من حرج،[٣٠] ولا خلقنا عبثًا لنلعب ونلهو.[٣١] إذ ستستمر مكانة المكابدة أبدًا بوصفها مكونًا طبيعيًا لحياة بني آدم، ليُمتحنوا بكل أنواع الأزمات.

أم أننا لا زلنا نتوهَّم أننا سنُترك بمُجرَّد أن نقول: "آمنا"؟![٣٢]

---

i- دوِّنَت هذه الورقة قبل اندلاع ما سُمي بـ"الربيع العربي"، وتحديدًا خلال عام 2009م؛ وهي تنتمي إلى حقل فلسفة التاريخ، وتطوي رؤية جد ناضجة لصيرورته. رؤية يفتقدها أكثر من ورثوا الإسلام، وخصوصًا من تسمّوا بالإسلاميين. وقد أفلح المؤلف، بدرجة كبيرة؛ في تشخيص علل الأمة وأدوائها، بغض النظر عن ابتذال كثير من الحلول العملية التي يقترحها. ومثله في ذلك مثل كثير من المتحولين إلى الإسلام في العصر الحاضر، الذين كانت قُدرتهم على التمييز بين انحطاط ذراري المسلمين وبين حقيقة الإسلام بابًا لإيمانهم بما أنزل على محمد، صلى الله عليه وسلم؛ فإنه ما يزال غربي الذهن والهوى. وما زال يميل أحيانًا ليَزِن

٢٧- "فاعفُ عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر" (سورة آل عمران، الآية 159)، "وأمرهم شورى بينهم" (سورة الشورى، الآية 38).

٢٨- "وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض" (سورة الأنعام، الآية165)، "أمن يُجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض" (سورة النمل، الآية 62)، "هو الذي جعلكم خلائف في الأرض" (سورة فاطر، الآية39).

٢٩- ونحن منهم، ولا فخر! (المعرِّب)

٣٠- "هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج" (سورة الحج، الآية 78).

٣١ - "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا، وأنكم إلينا لا تُرجعون؟" (سورة المؤمنون، الآية 115).

٣٢ - "أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا، وهم لا يُفتنون؟" (سورة العنكبوت، الآية الثانية).

الإسلام بموازين الغرب، ولو كان ذلك بشكلٍ غير واعٍ؛ تلك الموازين التي يرفضها واعيًا إلى الدرجة التي دعته للبحث عن خلاصٍ خارج ميراثه الحضاري والثقافي حتى اعتنق الإسلام. (المعرِّب)

ii- ولد ويلفريد هوفمان عام 1931م في إحدى مُدن مُقاطعة باڤاريا، لأسرةٍ ألمانية كاثوليكية. حيث عاش تحت القصف خلال الحرب العالمية الثانية (1939-1945م). ورغم أنه كان مُلزمًا بإدراج اسمه صبيًا في لوائح شبيبة هتلر، فقد انتمى في ذات الوقت لتنظيم سري كاثوليكي من تنظيمات الجيزويت. درس هوفمان في جامعتي ميونيخ وهارفرد، وتزوَّج من سيدة أمريكية أنجب منها ولدًا قبل أن تتوفى بالسرطان. وبين عامي 1961 و1994م؛ خدم هوفمان في الخارجية الألمانية، فشغل منصب مدير معلومات حلف النيتو في بروكسل، وكان سفيرًا لألمانيا في كلٍ من المغرب والجزائر. وفي عام 1980م؛ أسلم وتسمّى بـ"مراد"، وتزوَّج من سيدة تُركيّة. وتلا ذلك أداؤه للحج مرتان، وللعمرة خمس مرات. وقد اضطلع بمهام مُتعلقة بالمجلس المركزي لمسلمي ألمانيا من 1994 إلى 2008م. ألقى هوفمان مئات المحاضرات عن الإسلام حول العالم، ونشر عددًا من الكتب تُرجم أكثرها إلى العربية، ومنها: "الإسلام كبديل"، "الطريق إلى مكة"، و"يوميات ألماني مسلم".

iii- أديب ومفكر ومترجم وناشر مصري. وُلِد بالقاهرة، وتخرَّج في كلية الآداب بجامعتها. نشر العديد من المقالات والأوراق البحثية والترجمات تصُب جميعًا في استعادة مركزية الوحي الإلهي وتجديد الاجتهاد في الفكر والحركة الإسلاميين. مُهتمٌ بالنقد الأدبي. نُشِر له كتاب: «أفكار خارج القفص»، ومجموعة قصصية بعنوان: «طير بلا أجنحة». وله قيد الطبع كتاب: «تأملات مُسلم»، فضلًا عن ترجمته لكتابي كليم صديقي: «نظرية الثورة الإسلامية»، وحامد الگار: «جذور الثورة الإسلامية في إيران» .